مالك سمارة

«باب الواد»: المجاز «الصهيوني» وإعادة إنتاج المكان

نخصص في هذه المساحة من مجلة «قضايا إسرائيلية» زاوية دائمة لترجمة قصائد من عيون الشعر العبري الحديث، وتقديمها للقارئ العربي في قالب نقدي؛ والهدف من ذلك فتح نوافذ جديدة للمعرفة والسؤال في مجال الثقافة الإسرائيلية عمومًا، ومجال الشعر العبريّ على وجه التحديد، الذي ظلّ الجهد البحثي والترجمي فيه فقيرًا إلى حدّ بعيد، رغم أنّ القصيدة لا تنفكّ عن الخطاب الإسرائيلي؛ هي تساهم في تشكيله بقدر ما تتبنّاه وتتضمّنه، ومن هنا لنا أن نتقصّى بصماتها في الوعي والمخيال و«الإيثوس» الإسرائيلي الجمعي. اخترنا أن نقدّم في هذه الزاوية قصيدة «باب الواد» لحاييم غوري (١٩٢٣–٢٠١٨)، وهو من شعراء «الجيل المؤسس» في إسرائيل، على اعتبار أن قصيدته تلك، التي لحّنت وغنّاها مطربون إسرائيليون كثر، ستصبح إحدى القصائد المركزيّة في بناء الوعي القومي الإسرائيلي، وفي التأريخ شعريًّا لحرب النكبة.

المحرر

حاييم غوري

باب الواد- حاييم غوري

هنا كنت عابرًا.. وقفت بمحاذاة حجر
وطريق أسفلت أسود.. وصخور وتلال
بطيئًا يهبط المساء.. ويهبّ نسيم البحر
ومن وراء بيت محسير
تتلألأ النجمة الأولى

___

باب الواد
نسألك أن تتذكّر أسماءنا إلى الأبد؛
القوافل شقّت دربها نحو المدينة...
وعلى قوارع الطريق يستلقي موتانا
وهيكلُ حديدٍ صامت... مثل رفاق السلاح

___

هنا ذاب القطران والرصاص تحت الشمس
ومرّت الليالي تومضها النار والسكاكين
هنا يسكن الأسى والمجد معًا
في مدرّعة محترقة... واسم لشخص ما مجهول

___

يا باب الواد...
وأنا أمشي.. طاويًا هذا الطريق بصمت
أتذكرهم واحدًا واحدًا
هنا قاتلنا جنبًا إلى جنب على المنحدرات والوعور
هنا كنّا عائلة واحدة..

___

يا باب الواد..
سيأتي يوم ربيعي ويتفتّح قرن الغزال
وتكسو شقائق النعمان الجبالَ والسفوحَ حمرتَها
ومن سيسلك هذا الطريق... عابرًا آثار أقدامنا
لا بدّ وألّا ينسانا نحن... نحن باب الواد

___

على جرف المدينة المقدّسة، ينبثق مسلك باب الواد، مسيّجًا بالصخور والأشجار الحرجيّة، متوسّطًا طرق المواصلات من المدينة وإليها، ظلًّا لجبال وسط فلسطين، من الخليل إلى رام الله، وخطَّ دفاعٍ أخير قدّمته الطبيعة للمدينة ضدّ الغزاة القادمين، للمفارقة، من الغرب، وكأن الجغرافيا كانت تنبئ بما تخبّئه الأقدار. هذا الموقع الإستراتيجي جعل منه ساحة قتال مكلفة، ولا مناص منها، في الكثير من الملاحم الزاخر بها تاريخ المدينة، منذ الحروب الصليبية إلى حرب النكبة.

على هذا النحو، كان منتهى حملة ريتشارد قلب الأسد عند ضفتي الوادي، وكذا تكبّدت حملة إبراهيم علي باشا، القادمة من مصر، خسائر فادحة أجبرتها على الانكفاء، واندلعت على عتباته إحدى أشد المعارك ضراوة بين الإنجليز والأتراك في الحرب العالمية الأولى، وأخيرًا شهد هذا الطريق على أفدح خسائر العصابات الصهيونيّة خلال حرب عام ١٩٤٨، حين كانت الأرتال الصهيونية، المتوجّهة من مناطق السهل الساحلي لكسر الحصار عن مستوطنات غربي القدس، تمرّ تحت مدافع وبنادق قلّة من مقاتلي جيش التحرير العربي، جلّهم تجمّع من قرى القدس، عمواس ويالو وبيت محسير وبيت نوبا وساريس وغيرها، حتّى أجبروا قادة الحركة الصهيونيّة على شقّ طريق التفافي بديل أكثر وعورة وأطول مسافة، بعد أن توقّف القتال العنيف الذي خاضته فرقة من قوات النخبة «البلماح»، بقيادة إسحق رابين، مدعومة بفرق أخرى من «الهاغاناه»، عند السيطرة على باب الواد، من دون تأمين خاصرته الغربية في اللطرون، ما يعني أن هذا الطريق سيظلّ مغلقًا حتى حرب عام ١٩٦٧.

تلك المقدّمة، على ما فيها من اختزال سرديّ، تبدو كافية لاستدراك الاختزال المجازي الذي تقوم عليه خاتمة حاييم غوري، حين يقول، قافزًا على الرومان والصليبيين والأيوبيين والأتراك والإنجليز، ومن ظلّوا دونهم أهلًا للبلاد: «نحن باب الواد»، ولعلّ في «بطن الشاعر»، وهو من شعراء الجيل المؤسس وروّاد «أغاني أرض إسرائيل» ومؤسسي حركة «أرض إسرائيل الكاملة» لاحقًا، معاني مرمّزة ومشحونة بأيديولوجيا «نفي المنفى»، و«العودة إلى التاريخ»، وإلى «أرض بلا شعب». على هذا النحو، لا وجود لـ«الآخر» في قصيدة غوري، هو منفيّ في السرديّة وفي المجاز، وفي حدود اللغة، التي تقوم فيها «نحن» الواسعة، في عز مسعاها نحو الجمعية ونكران الذات، مقام «الأنا» القوميّة الضيقة، في لحظة تذويت «أدبية» لمشهديّة تضحية وبطولة لا يحمل شخوصها أسماءً، ولا ألقابًا، ويذوبون في الـ«نحن» اليهوديّة، التي عندها يكون منتهى تاريخ باب الواد ومبتدؤه.

لكن إذا كان لنا أن نعيّن اختلافًا موضوعيًا في قصيدة غوري، فذلك على الأغلب في كونها توثّق، في أعقاب حرب كسبتها الدولة الإسرائيلية الوليدة، فصلًا من فصولها موسومًا بـ«الخسارة» أكثر من النصر، وكان للمقاومة العربية فيه اليد العليا في معظم المراحل؛ في زمنٍ كان الخطاب الصهيوني فيه، والشعر من ضمنه، مفعمًا بمفردات القوة والزهوّ والجلد. رغم ذلك، فإن غوري لا يجاوز سياق زمنه، بقدر ما يكسوه بعدًا آخر، أكثر «عنفًا» ربّما، حين يؤكد على ثنائية «المجد والتضحية»، فيقول: «هنا يسكن الأسى والمجد معًا/ في مدرعة محترقة واسم لشخص ما مجهول». يقحم الشاعر، الذي قاتل أيضًا ضمن صفوف «البلماح»، لكن في قطاع النقب، الفداء هنا ضمن مفردات البطولة، ويطبّعهما في جوهر معنوي واحد؛ لا شرطًا للنصر فحسب، بل ولاستحقاق المكان، وتذويته في الأنا الصهيونية على مذبح الدم. هكذا يعاد رسم المكان في المخيال، كما يعاد رسمه في الوقع، حيث لا تزال بقايا المركبات المحترقة مرصوفة على قوارع باب الواد، وعلى المنحدر الصخري نصب تذكاري على شكل صواريخ موجّهة إلى الطريق الذي بات يحمل اسم «طريق رقم ١» اليوم في إسرائيل، وبين الصورتين، الواقع والرمز، التضحية والبطولة، أهل «الواد» مغيّبون.